العالم بأعين صغيرة

- كيف تغير عالماً لا تريده ؟
- كيف يكون الألم والمعاناة سبيلا نحو المعرفة ؟
- هل الإنسان صانع شخصيته ؟
- الإنسان الحر مقيد بالحرية ؟
- كيف نفكر بطريقة إيجابية ؟
- صراع العقل والعاطفة
- ما هي حدود المعرفة البشرية ؟

تأليف الطابة الجامعية

إيمان ملال

العالم بأعين صغيرة

كيف تغير عالماً لا تريده ؟

كيف يكون الألم والمعاناة سبيلا نحو المعرفة ؟

هل الإنسان صانع شخصيته ؟

الإنسان الحر مقيد بالحرية ؟

كيف نفكر بطريقة إيجابية ؟

صراع العقل والعاطفة

ما هي حدود المعرفة البشرية ؟

بقلم الطالبة الجامعية

إيمـــان مــلال

اسم الكتاب : العالم بأعين صغيرة
المؤلفة : إيـــمان مـلال
الطبعة الأولى للناشر 1431 هـ –2011م
تصميم الغلاف : . . . . . .
تصميم الكتاب :) يوسف نجاري)
مقاس الكتاب : 21 x 18.8
مراجعة لغوية : ...
الناشر : ...
رقم الإيداع :
الموقع على شبكة الانترنت :

إهداء ..

أهدي هذا الكتاب إلى أبي وأمي اللذان سهرا على تعليمي وتربيتي إلى أن وصلت إلى هذا المستوى الذي جعلني قادرة على إنجاز شيء بسيط كثمرة لذلك التعليم ..

وأهديه أيضا إلى كل أصدقائي الذين كانوا إلى جانبي طيلة الوقت، والذين ساعدوني على اكتشاف موهبة كانت دفينة بداخلي ..

وإلى جميع أساتذتي الذين منهم استلهمت هذا الإبداع ..

العالم بأعينٍ صغيرة.

مقدمة الكتاب

إن هذا الكتاب موجه إلى ذات الكاتبة قبل أن يكون موجهاً إلى من سيقرأه، لأنه يحمل في أدق تفاصيله روحاً تجسدت فيه قبل أن تنتقل إلى القارئ لتسكنه من جديد، ولعلها قادرة على جعله يكمل قراءة الكتاب حتى النهاية لأنه روح الكاتبة التي ترجمتها إلى كلمات حية، فمنحتها بعضاً من وضوحها لتجعل القارئ يعيش اللحظة بكل تفاصيلها، ويتمنى لو أن الزمن يتوقف للحظات فقط، حتى يشعر بكل كلمة يقرأها دون أن يفقد إحساسه بسابقتها

!

إذن، هذا الكتاب موجه إلى كل من يشعر بأنه قادر على التضحية في سبيل العلم الذي يحمله والذي لازال يريد أن يحمله. وموجه إلى من يملك مقدار ذرة أو أكثر من الغيرة على وطنه، سواء أكان هذا الوطن الجغرافي الذي نعرفه، أو كان وطناً آخر أبدعه في خياله وصاغه على غرار المدينة الفاضلة .

فإذا كنت ممن يملكون عقلاً يفكر، وقلباً ينبض، وروحاً مشتعلة وجسداً يحترق بنور الأمل كما تحترق الشمعة في الليلة الظلماء لتضئ ليل الآخرين، فلا تتردد إذن، لأن هذا الكتاب هو ملك لك، لأنه في ذات اللحظة تعبير عن ذاتك وتجسيد لجزء من خيالك وأفكارك المشتركة مع البعض الآخر.

تقديم

لماذا أكتب ؟

" أن تعيش حياتك كما تريد، وتستسلم لخيالك وتدع الأمل والطموح يغمر روحك من كل جانب، ثم تؤمن بأن إيمانك سيجعلك تصل إلى ما تريد ! "

تلك هي القولة التي أجمع فيها الأشياء الأربعة التي من الممكن أن تدفع أي شخص يفكر ليكتب، ثم يكتب ليكون .

بالنسبة لي، لست أكتب لأني أشعر بالملل، لأن الكتابة أعظم من أن تكون ملءاً للفراغ الذي نشعر به، ولست أكتب لأعيد تكرار ماقيل وما لازال يقال في كل مكان، لأن إعادة تكرار الماضي بكل تفاصيله أمر عبثي بالدرجة الأولى ويجعلنا نفقد كل إحساس بحاضرنا . وأيضاً لن اكتب لأعيد مسح الطاولة الديكارتية أو بناء المنهج الخاص في التفكير، ولن أكمل تحطيم ما تبقى من الأصنام التي بدأ نيتشه مشروع تحطيمها، ولن أقوم بتدوين خطابات لغوية تحت شعار الحقيقة لتضليل الآخرين ودفعهم إلى الإيمان ببعض الأوهام والحقائق المزيفة بدعوى الدفاع عن الحقوق والمطالب ..

فكل ذلك كان جزءاً من الماضي ولسنا هنا بصدد تكرار أحداث التاريخ، لأنها مهمة الوثائق وليست مهمة أناس يعيشون الحاضر لأجل المستقبل، إضافة إلى أن أي نوع من التكرار قد لايكون لصالحنا، لأنه أبداً لن يوصلنا إلا إلى تلك النقطة التي وصل إليها الآخرون، والتي لا جدوى من الوقوف عندها لوقت أطول ..

وبالتالي فأنا أكتب ليس لشيء آخر سوى لأكون .

وكما أن المذهب الوجودي في الفلسفة المعاصرة – فلسفة سارتر نموذجاً – ذهب إلى إثبات وجود الشيء عن طريق أفعاله وتأثيراته على العالم الخارجي، فإنني أؤكد هنا على أن الكتابة قد تكون ذلك الأثر الذي يدل على وجودي.

كما لاحظنا، هناك علاقة تفاعل مستمر بين الإنسان ممثلاً بفعل الكتابة، وبين الآخر ممثلاً بفعل القراءة، لأن ما أريد قوله هو في أصل الأمر مجرد أفكار مبعثرة داخل ذهني، أحاول جعلها تخضع للمنطق فأرتبها ثم بعد ذلك يمليها فكري على قلمي الذي يمارس فعل الكتابة ليأتي القارئ فيما بعد ليتصفح الكتاب ويقرأ أفكاره لتعود إلى ذاكرته فتقوم بتحليلها وصياغتها وفقا للفه الخاص له. المشكلة هي في نوع الفهم الذي من الممكن أن يصوغه القارئ عن فكرتي، لأن هناك عدداً كبيرا من الإحتمالات المتوقعة عن الإنطباعات التي قد ينتجها القارئ وهو يمارس فعل القراءة ومحاولة الفهم. الأمر طبيعي جدا، لأن ميولاتي وأفكاري وشخصيتي ومحيطي وعدة عوامل أخرى لا تشبه نظيرتها لدى الآخر، وهنا تظهر مدى براعة الكاتب في إيصال المضمون بلغة سليمة وبأقل عدد من المغالطات اللغوية أو العكس .

الباب الأول

معالم حياة مختلفة

كيف تغير عالماً لا تريده ؟

إذا انتبهنا إلى السؤال المطروح أعلاه، فإننا نجد ثلاثة مفاهيم أساسية، سوف يبنى عليها الموضوع الحالي وهي :

التغيير- الإرادة- العالم.

لنأخذ مثلاً مفهوم التغيير الذي يحيلنا تلقائياً إلى التفكير في حالة بدئية وحالة نهائية وعلاقة انتقال بين الحالتين، وهذا هو ما أقصده بالتغيير هنا، بتعبير أدق : التغيير هو انتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب فيها.

إذن ما مواصفات العالم الذي نريده ؟

أفترض أن الإجابة على هذا السؤال تقتضي منا الإجابة عن نقيضه، لأننا بمعرفة مواصفات العالم الذي لا نريده سوف نعرف مواصفات الذي نريده. لكنها تبقى إجابة نسبية.

حينما أتى الإنسان الى الوجود لم يكن يملك الحرية في اختيار هذا العالم بالذات، ولكنه بطريقة ما، نفس الأمر الذي حدث معي ومعك ومع الآخر، حتى وجدنا أنفسنا نشارك الآخرين نفس العالم.

ولو افترضنا أن الإنسان قبل مجيئه إلى العالم الحالي كان بإمكانه تحديد أوصاف العالم الذي يريده، فأعتقد أن احتمال أن يتواجد شخصان على الأل في عالم واحد سيكون ضعيفاً جدا، وهنا يظهر السبب الأقوى الذي يجعل الواحد منا يرغب في تغيير العالم، ولكن هذه المرة ليس حسب أهوائه الشخصية ولكن حسب مبادئ وقواعد صارمة، فالعالم ليس ملكاً لأفراد معينين، بل هو ملك لمجتمع من الأإراد تجمعهم نفس المطالب ونفس الرغبة في تحقيق الخير والصلاح للأفراد الآخرين.

ولهذا أيضا، قد نرى البعض يعبر عن عدم اقتناعه بهذا العالم بوسائل مختلفة، فهناك من اختار التمرد على قوانينه كوسيلة تبير عن عدم الرضى، وهناك من اختار الحرب المدمرة، في حين اختار البعض الآخر الكتابة للتعبير عن نفس الشيء.

لكن السؤال الأساسي الذي يفرض نفسه هو : أي تلك الوسائل أكثر أهمية وصلاحية من غيرها ؟

أهو التمرد على العالم وعدم الخضوع لقوانينه الوضعية بدعوى أنه ليس العالم الذي نريد، أم هي الحرب والدماء التي تسفك لتحقيق التغيير المنشود، أو ربما هي أقلام المحاربين بلا أسلحة، رغم أنهم قد يلجؤون في مواقف صعبة إلى الكتابة بدمائهم ؟

لو عدنا إلى الوراء بقليل للاحظنا أن التاريخ حافل بالأحداث التي تدل على أن كل تلك الأساليب التعبيرية كانت ناجحة في زمن ما، باعتبار أن أنظمة حكومية ودولاً بأكملها انهارت بسبب الحرب والثورات التي يقودها المتمردون على الأوضاع التي يعيشونها. وليس علينا أن ننسى أن شعوباً تطورت نتيجة للتأليف والكتابة، لأن الأثر الذي قد يخلفه كتاب في أمة واحدة د يكون أكبر من الأثر الناتج عن ثورة وربما بخسائر منخفضة.

والآن، لو حاولنا التحدث باختصار شديد عن العالم الذي نرغب به، فلن نجد ما يكفي من الكلمات المعبرة لوصفه، لأن الإنسان بطبعه يميل للأفضل حتى ولو كان يملكه، وربما سنضطر أيضا إلى إبداع لغة فوقية أي لغة تفوق اللغة التي نعرفها حتى نصف بكامل الحرية ذلك النموذج الإفتراضي للعالم الذي نريده، مثلاً :

أنا أريد عالماً يسوده العدل والحرية والسلام، وأريد عالماً يتساوى فيه الجميع وتنعدم فيه تلك التقسيمات الطبقية للأفراد، حيث يكون العلم والإبداع من حق الجميع.

بعد هذا المثال البسيطة، أفترض ان الملاحظة الأولى التي قد يبديها شخص مباشرة بعد قراءته له، أن العالم الذي أحلم به يكاد يكون بناءً نظرياً لا علاقة له بالواقع أو المنطق، وقد يحكم البعض باستحالة وجوده على الأقل حالياً وبعد سنوات، وبالطبع معهم كل الحق، لأن العالم الذي نعيشه مليء بالمتناقضات، إلى درجة أن تلك الصورة الشنيعة التي نملكها عنه تحجب عنا رؤية عالم أفضل حتى في احلامنا.

أقول، ليس بإمكان الفرد الواحد تغيير العالم ببساطة تامة، لأنه كما يقال " يد واحدة لا تصفق"، ولكن من حقه أن يطالب بذلك، ويدافع عن مطلبه هذا حتى النهاية، ولكن بعيداً عن تلك الآراء والقرارات المتهورة التي لا تفيد بشيء، بل ترفع من نسبة الخسائر كل يوم أكثر الأمس.
في النهاية، أرى بكل وضوح، أننا نحن البشر منذ ولادتنا الأولى إلى الآن ونحن نخوض نزالاً حاداً، ونلعب لعبة لم نحظ بشر فاختيار ساحتها ولا أفرادها ولا حتى قوانينها، لكننا مطالبون بفهم كل ذلك في أقصر وقت ممكن، حتى يتبقى لنا الوقت الكافي لنتقن اللعبة ثم نفوز بالجائزة الكبرى مقدمة من طرف صانع اللعبة، وصانع الكون.
إضافة إلى أننا مطالبون بأن ندع جانباً تلك الشعارات والقوانين الفاسدة التي تدعي أن القانون الذي يحكم العالم هو " إما أن تصيد أو يتم صيدك " ، بمعنى " قانون الغلبة للأقوى"، لأن القوة ليست كل شيء بالنسبة لإنسان عاقل، وهي كل شيء بالنسبة للحيوان الذي لا يفكر- مبدئياً – مع انه يتعلم عن طريق التكرار والفطرة .
يقول تعالى : " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " [سورة الرعد/15]

كيف يكون الألم والمعاناة سبيلا نحو المعرفة ؟

إن أغلب المبدعين والعباقرة من مؤلفين وعلماء ورسامين وما إلى ذلك، لم يولدوا عباقرة، بل هي ظروفهم التي أرغمتهم على أن يكونوا كذلك، فمنهم من عانى الشلل ومع ذلك أبدع على طريقته الخاصة، ومنهم من عاش يتيماً لكنه عوض ذلك الألم والنقص الذي عاشه بشيء أفضل يستحق من العالم كل احترام وتقدير، والبعض الآخر ضحى بأغلى ما يملك في سبيل تقحيق حلمه الأساسي، وهو ألا يخرج من العالم خالي الوفاض وبلا أثر وراءه كما دخل إليه.

إن المعاناة أحد الأسباب السيكولوجية التي قد تدفع الفرد إلى العمل الجاد قصد تحححقيق إنجاز عظيم تبقى البشرية مستفيدة منه على مر العصور، ذلك أن الشخص الذي يعاني من اللألم النفسي أو الجسدي نتيجة ظروف خاصة، يلجأ إلى وسائل أكثر جدوى حتى يسد ذلك الفراغ الذي يشعر به، لأن المعاناة هي نتيجة للنقص في تركيبة الإنسان البيولوجية أو السيكولوجية، لأن الإنسان الذي يملك كل وسائل الرفاهية والحياة السليمة لا يملك سبباً مقنعاً ليجعله يفكر في فعل شيء مختلف وفريد من نوعه.
وبهذا الخصوص، أرى أن المعاناة هي أم كل إبداع واختراع، وليس الحاجة، لأن الحاجة وليدة المعاناة، فهذه الأخيرة تسبق الحاجة، بمعنى أنني لو لم أكن - مثلا – أعاني من صداع في

الرأس لما تأكدت من أنني بحاجة لمسكن للالم، وهذا ما كان سيدفعني إلى اختراع شيء او وسيلة لإبعاد الألم عني – كافتراض توضيحي فقط - .
لو أخذنا مثال ألبرت أينشتاين، لكن دون الدخول في تفاصيل حياته المملة، نلاحظ أنه قال يوماً، إنه ليس بإنسان عبقري كما يعتقد البعض، بل الفرق الوحيد بينه وبين أي شخص آخر هو أنه يبقى وحيداً في مواجهة المشاكل ولمدة طويلة، ولا أعتقد أنه حين صرح بذلك، كان يحاول التواضع بل أرى في كلامه بعداً فلسفياً أعمق من ذلك بكثير، لأنه بقدر ما نمارس فعل التفكير لمدة طويلة، ومع تكرار الأمر لزمن أطول وبشكل روتيني، فإننا نصبح قادرين على التعامل مع أي مشكل نواجهه، لأننا نملك ما يكفي من الأدوات اللازمة لحله، والتي حصلنا عليها من خلال تجاربنا السابقة حين كنا نخفق مرة وننجح في أخرى .. وهذا هو معنى أن تصبح عبقرياً.
إذن جميعنا نملك القابلية لنصبح أينشتاين، ولم لا أفضل منه ؟

هل الإنسان صانع شخصيته ؟

قال أحد الفلاسفة اليونانيين القدامى إنه بإمكانه، لو أحضرنا له عشرة أطفال رضع، أن يصنع من الأول طبيباً، ومن الثاني مهندسا، والثالث لصاً ...إلخ. الفكرة الأساسية أو السؤال المطروح هنا هو: هل حقا بإمكان الآخر أن يتحكم فيما قد تكونه أنت في المستقبل ؟
اختلفت الآراء حول مدى إمكانية البرمجة المسبقة للشخص ليكون شيئا نريده نحن لا هو، بمعنى أن الإنسان يخضع لمبدأ الحتمية " نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج "، وهكذا نتمكن من جعل الرضيع مهندسا مستقبلياً إذا تربى في غرفة بها أدوات للهندسة، وقمنا بتعليمه وتدريبه على وظائفها وكيفية استعمالها ووفرنا له الجو الملائم ليكون مهندسا، ونفس الشيء بالنسبة للص، إذ بإمكاننا بسهولة تامة، أن نجعل من الطفل لصاً إذا نحن جعلناه يعيش نفس الظروف التي انجبت في السابق أحد اللصوص.
هكذا أفسر الحتمية على المستوى البشري ببساطة، فالأسباب التي جعلت فلان كما هو الآن، هي نفسها الأسباب التي إذا إذا أخضعت شخصا أخر لها فسوف ينتج عنها شخص بنفس حالته.
إلى هنا أتفق جزئيا مع المذهب الفلسفي الذي يدعم هذا الرأي، لكن السؤال المطروح هو : هل سيكون ذلك الشخص الذي كان رضيعا مرغماً على أن يصبح مهندساً، راضياً على ما هو عليه في المستقبل ؟ ونفس الشيء بالنسبة للص الذي تربى في وسط يريد منه ان يصبح لصا .

لا أعتقد أن الشخصية التي يمتلكها هؤلاء هي شخصية كاملة، لأنها مجرد قناع لواقعهم الذي يحلمون به، فلا يوجد ما يضمن لنا أن ذلك اللص أو الطبيب أوالمهندس لن يتخلى عن وظيفته في يوم ما، بعد أن يشعر بصوت ينادي من أعماقه، ويخبره بأنه ليس هو ذاته، بل هو شخص آخر يجب أن يخرج من داخله ليكون ما يريد.
وهنا يكمن الفرق بين برمجة الآلة وبرمجة الإنسان، لأن الآلة مجرد مطبق ومستجيب للأوامر المعطاة لها والبيانات المخزنة في قاعدة البيانات. لكن الإنسان أكبر من ذلك، فهناك إمكانية دائمة للتغيير الجذري في عقليته وتفكيره وكل شيء يخصه إذا ما اصطدم واقعه بعدم الرضى والرغبة في الأفضل.
إذن ليس لأحد القدرة على صنع شخصية الآخر بصفة مطلقة، لانه حتى ولو نجح، بطريقة أو بأخرى، في ذلك، فإن هذا لا يمنع من وجود ثغرات في الشخص المبرمج، وبالتالي فالإنسان مسؤول عما يريد أن يكون، فهو في إحدى مراحل عمره سيكون قادراً على تقرير مصيره، وبالتالي تأسيس شخصية تخصه ولا يملك احد الحق في فرض شخصية اخرى عليه.
وأخيرا يمكن أن نجمع أفكار الموقف الأخير في موقف للفيلسوف الوجودي سارتر الذي عمل من خلال فلسفته الوجودية على التأكيد على أن الإنسان ليس مجرد تركيب لعوامل سابقة، بل هو مشروع يعاش ويسعى لتجاوز اللحظة من أجل المستقبل، بمعنى أنه هو من يحدد ويختار من يكون.

الباب الثاني

بين الحرية والإبداع

الباب الثاني -بين الحرية والإبداع

الإنسان الحر مقيد بالحرية ؟

سوف نبدأ حديثنا بافتراض ان الإنسان يتمتع بحرية كاملة في أخذ قراراته واختياراته الشخصية، لكن تلك الرغبات التي هي انعكاس للقرارات الشخصية هي بالضبط ما يتحكم بهذا الإنسان الذي يفترض به أن يكون حرا، بمعنى صريح، فإن قولنا بأن الإنسان حر هو كقولنا

بأنه إنسان مقيد بالحرية .
إذن مادام هناك قيد يتحكم بالإنسان الذي نتعامل معه – الإنسان الحر – فإنه ليس حراً، لأن الحرية التي افترضنا وجودها تعني عدم الخضوع لأي شيء، إذن ما الحرية الحقيقية ؟ هل هي موجودة على أساس نسبي أو مطلق ؟

لقد تحدث أحد الفلاسفة عن الحرية معتبراً إياها الأصل والأساس التي تنبى عليه كل الأنشطة الإجتماعية والحياة الإنسانية على وجه الخصوص، لكن دون إهمال الشروط التي تمارس داخلها هذه الحرية، بمعنى ان نتقبل تلك الشروط ثم نجعل منها عامل انطلاق وقوة، لان الحرية لا تتقدم إلا بوجود الحواجز والتضحية. وبما أنه ليس كل شيء في الوجود ممكنا، فإنها هناك شيئا يسمى المستحيل، وبالتالي هناك أيضا رغبة في تحدي المستحيل، مما يعني أن قيمة الحرية الحقيقية تكمن في كونها موجهة، أي خاضعة لشروط تحكمها. لكن ما محل الإبداع من كل هذا ؟

إن الإبداع من وجهة نظري هو مجموع الأنشطة والأعمال الفكرية أو المادية التي يمكن لإنسان أن ينتجها، شرط ان تكون نابعة من وعي داخلي بالحرية، إضافة إلى أن مصدرها يجب ان يكون هو ذات الفرد ووعيه وتفكيره الخاص.
إنني أسمي فكرة أنتجتها إبداعاً شخصياً لأنها صادرة عن ذاتي الواعية، ولأنها تعبر عن شيء ما قد يكون مختلفا أو مشابها لما عبر عنه آخرون، وأسمي لوحة فنية أرسمها بريشتي الخاصة إبداعاً، لأني رسمتها عن ثقة كاملة بأنها تعبر عما أريد إيصاله للآخر، وأيضا أسمي معزوفة موسيقية أعزفها إبداعاً، لأنها بالنسبة لي أكثر من موسيقى قد تكون جميلة وقد لا تكون بالنسبة للآخر، لأنه لا يهمني الإنطباع الذي ستخلفه لدى الآخر ما دمت أملك قناعة ذاتية بأنها هي نفسها المعزوفة التي تعبر عن حالتي النفسية لحظتئذٍ، وتعبر عن شيء ما بداخلي يريد ان ينفجر بأية طريقة.
هكذا إذن يكون الإبداع ميزة خاصة يملك أي شخص قابلية إدراكها، لكنها فئة نادرة تلك التي تستطيع الإيمان بأن إبداعاتها قد تكون إحدى الخطوات الأساسية نحو النجاح. لأن المبدعين وحدهم أنتجوا العالم الذي نعيشه الآن، أقصد العالم المتحضر والعلم المتطور بعيداً عن كل نظرة تشاؤمية.
لكن الإبداع لا يمكن أن تنتجه مجتمعات أو أفراد محرومون من الحرية، فلكي تبدع عليك أولا أن تشعر بأنك إنسان حر، وبأن أحداً لن يستطيع تقييدك باغلال تمنعك من فعل ما تريد، فالإنسان طاقات متجددة باستمرار، هذا الجسد الذي نراه من الخارج مجرد هيكل يخفي بداخله

أسراراً وعجائب أهمها الفكر والروح. فلكي نفهم بعضنا البعض علينا أولاً أن نشعر بتلك الحرية التي نحظى بها أمام الآخرين، ثم بعد ذلك سنتمكن من حبهم، وهذا ما سيجعلنا نفهمهم أكثر فأكثر..

إذن، الإبداع يستلزم بالضرورة أرضية تسمى الحرية، فبدون حرية لا يمكن أن نعبر بوضوح عما نرغب به، وبالتالي لن يفهم الآخر أننا نريد أن نعبر عن شيء محدد، مما يخلق حاجزاً أمام كل إمكانية للحوار البناء، سواء عن طريق الكتابة أو الرسم أو الموسيقى...إلخ.

وأخيراً- يمكننا القول إن الإنسان المبدع هو بالضرورة إنسان حر، أي أننا إذا أردنا البحث عن الحرية، فلن نذهب بعيداً جدا، كل ما علينا فعله هو البحث عنها في إبداعات الآخرين، هناك حيث تتجلى الحرية في أبهى صورها، بعيدا عن جدران وأسقف المنازل، وأبعد بكثير عن اكتظاظ المدينة والفوضى العارمة في أسواقها، لأن الحرية لا توجد هناك حيث لا أحد يهتم لها، إنها في الطبيعة موطن الإنسان الأول الذي أبدع حينما قاد الحياة القديمة نحو التطور الذي نراه الآن باعيننا، وتلك هي الحرية التي نطمح إلى العودة إليها، حيث كان الإنسان الأول صديق الشمس والقمر والنجوم المضيئة في السماء، ورفيق الأنهار والوديان والجبال والحيوانات. فإذا كنت ترغب في الشعور بالحرية، فلترحل بعيداً عن مكانك الذي اعتدت المكوث فيه، أبعد بكثر عن صخب الحياة الإجتماعية الآسرة، هناك حيث ولدت الحرية وحيث ستموت في يوم ما، لكي تبدأ حرية من نوع آخر، فلترحل إذن إلى الطبيعة موطنك الأصلي، وكن متأكداً من أن الحرية ستكون هناك .. بانتظارك .

الباب الثالث

العقل ميزة بشرية

الباب الثالث -العقل ميزة بشرية

كيف نفكر بطريقة إيجابية ؟

ما معنى التفكير ؟

التفكير ببساطة هو خاصية بشرية أو حالة يؤدي حدوثها إلى القول بأن العقل يقوم بوظيفته الطبيعية، غير أن هذا التفكير ليس بالضرورة إيجابيا بصفة كلية ولا العكس أيضا، حيث أن أساليب التفكير تختلف من كائن بشري إلى آخر، وحتى إذا ما قارنا بين التفكير البشري والتفكير الآلي أو الإصطناعي فسيتضح لنا أن ما نسميه تفكيرا هو أبعد بكثير من ان يكون آليا، بمعنى أن لا وجودلآلة تفكر إلا في أحلامنا، لأن التفكير سلوك تلقائي لدى الإنسان، عكس الآلة التي تتلقى الأوامر عن طريق البرمجة لتقوم بتطبيقها لا أكثر ولا أقل.

من هنا يمكن القول إن من إحدى خاصيات التفكير أنه سلوك يتسم بعدم قابلية توقع حدوثه قبل أن يحدث فعلاً، عكس الآلة التي يدرك مبرمجها أو أي شخص قد درس تصميمها وشارك في برمجتها أي سلوك قد تقوم به قبل أن تقوم به، بمعنى أن الإنسانالذي يفكر تحت ضغوط معينى هو أيضا – في هذه الحالة – سيكون شبيها بالآلة، لأن أي ضغط قد يمارس عليه سيؤدي إلى تضييق مجال تفكيره، وبالتالي يصبح إنسانا مفكرا لكن وفق نمط معين، لكن لشيء الوحيد الذي يمنعنا من وصفه بالآلي هو أنه قادر في أية لحظة على الإخلال بذلك النظام الذي يتحكم في تفكيره، والتحرر من القيود التي تمارس عليه، ليقوم بسلوك مخالف لما نتوقعه، الأمر الذي لا يحدث مع الآلة إلا إذا وقع بها خلل معين، وفي هذه الحالة أيضاً هناك غياب لإرادة حرة في فعل ذلك .

وإذا ما حاولنا تجاوز العقل البشري لطرح ذلك السؤال الأساسي الذي لا زال قائماً لحد الآن وهو : هل يمكن للآلة أن تتجاوز بذكائها قدرة العقل البشري وذكاءه ؟

لاشك أن العديد من أفلام الخيال العلمي قامت بتطوير هذه الفكرة وأجابت عن هذا السؤال من خلال عدة أطروحات، أهمها أن الذكاء الإصطناعي قادر على تجاوز الذكاء البشري إلى أبعد الحدود، وبالتالي هناك إمكانية لخضوع هذا الأخير إلى الآلة المفكرة، كما يحلو للمبرمجين العالميين وصناع أفلام الخيال العلمي تسميتها. لكن ذلك كله لا يعدو أن يكون خيالاً

وأفكارا محضة لا مجال لتحققها في يوم ما، والدليل أبسط بكثير مما نتوقعه، لأنه في الواقع إذا ما فكرنا في وجود آلة ذكية فقد استعملنا أسلوبا مجازيا فقط، لأنه لا وجود لآلة ذكية على أرض الواقع، هناك فقط وجود لآلة مبرمجة بذكاء . مما يدل على ذلك الإستلزام المؤكد بين وجود الآلة المبرمجة بذكاء ووجود العقل البشري الذي قام ببرمجتها، مما يعني أن الذكاء الإصطناعي حتى ولو بلغ أقصى درجاته فلن يتجاوز العقل البشري ما دام هو ذاته الذي أنشأه .

وإذا عدنا إلى موضوعنا الرئيسي، فسوف نتساءل عن الطريقة التي تجعلنا نسير بالعقل البشري نحو التطور الإيجابي، وأنا لست بمستوى التحدث عن العقل البشري عامة، بل أقصد العقل العربي على سبيل الحصر، لان الحديث عن العقل البشري وتطوريه قائم فعلاً نظريا وتطبيقياً في أماكن اخرى اختار اصحابها التفكير نشاطا وهواية ووظيفة.
فوسط عالمنا الملئ بالمتناقضات والخطابات اللغوية الإستعارية المحضة التي لا تنفع القارئ ولا تضره في أحسن الأحوال، هناك من يأبى القراءة والإستماع اللامجدي لأولئك الذين يبيعون الوهم للضعفاء، ويختار بدلاً عن ذلك نوعا آخر من النضال، كثورة في الصمت، لأن هدير الكلمات الكبيرة وحده لا يكفي لصنع النجاح والتفوق، بل يجب أن نكون في مستوى صخب كلماتنا حتى نطمح إلى النجاح.
أرى إذن أننا إذا رغبنا في إصلاح العقل العربي علينا أولا أن نقوم بإصلاح القيم والمبادئ السائدة، والتي يقوم عليها العقل ويتفاعل معها في كل آن، وهذا لن يتطلب منا أكثر مما فعله نيتشه حين تحدث عن مرحلة قلب القيم، لأن الإصلاح يجب ان يكون جذرياً وليس مجرد إصلاح سطحي يبقي على الجذور الفاسدة قائمة دون أن يحدث أي اهتزاز في قاعدتها.

صراع العقل والعاطفة

إذا بنينا حديثنا هنا على أساس أنا الإنسان بنية متكاملة من العناصر المشكلة لوجوده المادي والمعنوي، فسنتطرق بدون أدنى شك إلى العقل ثم العاطفة التي هي كيان جزئي من الكيان البشري كما العقل أيضا.
لكن إذا أردنا إنشاء علاقة ترتيبية بين هذين العنصرين، فالأجدر بنا أن نسأل أنفسنا : لمن الأسبقية للعقل أم العاطفة ؟

يرى البعض أننا لو نظرنا إلى السؤال بأعين براغماتية فسنجيب سريعاً بأن الأسبقية للعقل. ولكن من وجهة نظر إنسانية حساسة سنقول بلا تردد : العاطفة .
إذن ما طبيعة هذه الثنائية المتناقضة – لحد الآن – والتي يصعب الحسم فيها بصفة مطلقة ؟

لا يمكن لأحد أن ينفي أن العقل ميزتنا نحن البشر والتي بوساطتها وصلنا إلى ما نحن عليه الآن، وحتى دون الذهاب بعيداً بتفكيرنا، فعلى مستوى العلاقات الإجتماعية كمثال بسيط، نرى أن النجاح هو من نصيب أولئك الذين يعملون العقل، ولكن هل هذا معناه أنهم يهملون بالمقابل العاطفة ؟

لا أعتقد ذلك، لأن هذه الثنائية التي كنت أرى في بداية الأمر أنها متناقضة أصبحت تبدو لي الآن متكاملة، لأن العقل وحده لا يكفي لتحقيق النجاح، ولأن الإنسان الذي يفكر فقط بدون عاطفة، أي دون ان يشعر، لا يمكن ان يعيش فقط لمجرد أنه يفكر . وحتى الإنسان الذي تحكمه عاطفته لا يمكن ان يعيش فقط لمجرد انه يشعر ولن يذهب أبعد من قدميه.

لذا أفترض أن الإنسان عليه أن يحكم العقل في الأمور التي تحتاج التفكير، دون ان يتخلي عن عاطفته، وأيضا ان يحكم عاطفته في الأمور التي لا تحتاج التفكير والتي لن نخسر شيئا إذا قمنا بضمها إلى مجال العاطفة.

وبهذا الصدد أذكر قولة لفيلسوف إغريقي (قد يكون أرسطو طاليس) يقول : " إذا كانت الحياة مأساة لمن يشعر وملهاة لمن يفكر، فهي إذن مأساة ملهوية أو ملهاة مأساوية لأننا نفكر ونشعر "

ما هي حدود المعرفة البشرية ؟

تحدث نيتشه في أكثر من كتاب له (ككتاب " إنسان مفرط في إنسانيته ") عن إمكانية تحقق نظرية السوبرمان أو الرجل الذي تفوق قدراته كل البشر، مؤكدا على أنه لم يولد بعد- على الاقل في زمن نيتشه – ولا أعتقد انه كان ليغير من رأيه لو كان يعيش في عالمنا الآن، لأن الإنسان المتفوق – المفرط في إنسانيته – صحيح انه لم يولد بعد، لكن إضافة إلى ذلك فهو لن يولد أبداً، لأن الحد الأقصى للإنسانية هو الإنسانية ذاتها، الأمر شبيه بدرجة الصفر المطلق في ميزان الحرارة والتي لا يمكن النزول تحتها.

لا أدري ما إذا كان نيشته يؤمن بتلك الفكرة التي تحدث عنها – صدقاً – ولكن حتى ولو كان مؤمنا بها فإني أجد في تعبيره " الإنسان المتفوق لم يولد بعد " نوعا من الإيحاء باستحالة ولادته أبدا .

لأن الظروف التي يمكن أن تنجب ذلك الإنسان والتي أحصاها نيتشه كلها ليست متوفرة ولن تتوفر في المدى القريب، كأن يكون هذا الإنسان وليد الحرية والحب الطاهرين..

هذا ما سيؤدي بنا إلى القول بان المعرفة البشرية لها حدود لن تتجاوزها أبداً، فلو افترضنا مع اينشتاين ان الكون ليس له حدود، أي انه لا نهائي، مع العلم بأن حياة الإنسان محدودة والأسوأ

من ذلك أنها قصيرة، عندها سنصطدم بتناقض صارخ، فكيف تكون معرفة الإنسان لانهائية إذا كان سيعيش مدة نهائية ؟
وإذا افترضنا العكس، أي ان الكون محدود بشيء ما فستكون معرفتنا به ايضا محدودة، مما يعني أنه في كل الحالات لا يمكن ان نحصل على معرفة لامحدودة، وهذا معناه ان العقل البشري قاصر عن ادراك بعض الأشياء، والأرجح انها غالبيتها.
لكن ما هي حدود المعرفة او العقل ؟
هناك عدة إجابات سريعة على هذا السؤال، إحداها أن حدود العقل هي نفسها حدود الكون، والكون بهذا المعنى منتهي الحدود، وليس لانهائيا كما قال أينشتاين، مع اني أفهم جيدا لم قال ذلك، لأنه انطلق من مفاهيم فيزيائية نظرية قد تكون صحيحة وقد لاتكون، وعند الحدود الكونية أي في اللحظة التي تتوقف عندها المعرفة البشريةوقدرة العقل على إدراك الأشياء- تبدأ معرفة من نوع آخر، بمعنى أن معرفة حدود العقل تقتضي معرفة حدود الكون التي لم نعرفها بعد، والجهل بالشيء هنا لا ينفي وجوده، بل يدعمه إلى أن تظهر حقيقة مضادة.

كلمة أخيرة

إن الحياة لحظات قد تكون جميلة وقد لاتكون، لكن الإبتسامة الطاهرة أمام كل مواقف الحياة كفيلة بجعلنا نشعر بالسعادة الحقيقية ونشارك الآخرين بها، كما أن أفكارنا وتبادلها مع الآخرين أيضا ميزة قد تجعلنا نشعر بالسعادة، لذلك أناشد كل إنسان حر يعشق القراءة والكتابة أن يحاول ما أمكن أن ينشر أفكاره حتى ولو كانت تبدو بسيطة بالنسبة له، لأننا بمشاركة الآخرين أفكارنا قد نتعلم الكثير.
فلنعمل إذن جميعاً لأجل مجتمع أفضل، ولأجل صناعة جيل مثقف قادر على الدفاع عن دينه وهويته وثقافته من التيارات الجارفة والعواصف المدمرة.

الشخصية ملال إيمان مدونة